مقدمة في
أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم

تأليف

محمد العبده
طارق عبد الحليم

دار الارقم
- الكويت -

مقدمة
في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م

دار الأرقم
للنشر والتوزيع
ص . ب : ٤٣٢٣١ ـ حولي ـ الكويت

مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم

تأليف

محمد العبده

طارق عبد الحليم

قال تعالى :

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (الأنعام ١٥٣) .

قال رسول الله ﷺ :
(ذروني ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم) (رواه مسلم) .

(إذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا ، بل الواقع أنه مامن بلاء كان فيما سبق إلا وهو موجود اليوم) .

ولي الله الدهلوي .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلامضل له ومن يضلل فلا هادي له ونصلي ونسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد .

فإن المتأمل في واقعنا الإسلامي المعاصر يجد نفسه ــ رغماً عنه ــ نهباً لمشاعر عديدة تهديه إلى البشاشة والإستبشار تارة ، وتدفعه إلى الحزن والألم تارات .

فهناك صحوة إسلامية لاشك فيها ، ليس هناك أدل عليها من تسارع ضربات الطغيان للمسلمين في كل مكان وازديادها وكثافتها ... فإنه كلما ازداد الفعل كلما ازداد ردّه بما يساويه ... هذا في عالم المادة أما في عالم العقيدة فإنه كلما ازداد الفعل كلما تضاعف ردّه أضعافاً كثيرة وفي عالم المادة أيضاً قد يوقف رد الفعل ذلك الفعل ويمنعه أما في عالم العقيدة فإن رد الفعل لا يزيده إلا قوة وصلابة وليس هذا من قبيل الإنشاء والتبجيد والمزايدة بالألفاظ ... بل إن التاريخ شاهد على صحته ، ونظرة فيما قصّه الله عز وجل علينا في كتابه العزيز من قصص دعوة الإسلام على مر تاريخ ابن آدم ــ منذ أنزل أبوهم آدم بالتوحيد حتى دعوة خاتم النبيين ﷺ ــ نرى مصداق ماقررناه من أن الإبتلاءات والمحن ليست إلا بوتقة كريمة تصهر فيها إرادة المسلمين لتخرج منها أصلب عوداً وأعمق

تجربة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالواحسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (١) .

وهذا ماغفل عنه الطغاة الذين يكيلون الضربات بقسوة وعنف ، وهم لايشعرون بأن الله سبحانه قد جعلهم فتنة للذين آمنوا يمحصهم بهم ، وليميز الخبيث من الطيب ، وأن تلك الضربات ستعود عليهم وبالاً يوم أن يورث الله سبحانه الأرض لعباده المتقين كما وعدهم سبحانه إذ قال : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ (٢) .

وهذه الصحوة الإسلامية ليست وليدة أيامنا الحاضرة هذه ، بل إن جذورها تمتد إلى مابعد سقوط الخلافة العثمانية في نهاية الربع الأول للقرن الحالي ، حيث أحدثت الهزة التي أسقطت كرسي الخلافة ، صحوة في نفوس مجموعة الدعاة الأوائل حملوها لمن بعدهم جذوة متقدة في النفوس الحية التي تأبى إلا أن تحيا حياة الإسلام ولاترضى بغيره بديلاً .

إلا أن الأحزان التي تحيط بواقع الحياة الإسلامية المعاصرة كثيرة أيضاً . فإنه لاتكاد تقرُّ عينك بما تراه من اتساع الحركة الإسلامية ، وتكاثف الكم الإسلامي نسبياً حتى ترى من خلف تلك الظواهر مايحزنك ، ويملأ نفسك أسى وحسرة فالإسلاميون مشتتون لايجمعهم فكر واحد ولامنهج موحد ، ولاينتظمهم صف معاً

١ ــ آل عمران ١٧٣ .
٢ ــ الصافات / ١٧١ ــ ١٧٣

لاختلاف أفكارهم ومناهجهم ، قد وقعوا في الفرق والإختلاف الذي نهى الله تعالى عنه وحذر عباده منه فقال : ﴿ ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (١) .

وكان من نتيجة هذا الضعف وهذه الفرقة أن استهان بهم الطغاة ، ورماهم عدوهم عن قوس واحدة أصابت منهم الصميم ، وراحت تقطف من خيرة شبابهم ماشاء لها كل بضع سنوات ، فما دفعهم ذلك إلى مراجعة مناهجهم المتعددة المتفرقة وإلى إعادة النظر في خطواتهم المضطربة المشتتة وصدق قول الله عز وجل : ﴿ ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ (٢) .

ولانقول ذلك ليخبو الأمل في نفوس المحبين لدعوة الإسلام ، العاملين عليها فاليأس من روح الله أول مدراج الكفر ، ولكن أول خطوات الشفاء تشخيص المرض تشخيصاً دقيقاً ، ومعرفة العلة معرفة تامة محيطة بكل جوانبها ، ثم بناء العلاج على ذلك التشخيص والتحديد بما هو مناسب له ومؤثر فيه .

فما هي أسباب هذا الضعف وهذه الفرقة والتشتت ؟

لاشك أن لهذا الأمر أصولاً وجذوراً بعيدة تمتد من منتصف القرن الأول الهجري وحتى حاضرنا هذا ، إلا أننا سنقتصر في هذه التقدمة على ملاحظة الأسباب الحاضرة القريبة دون البعيدة ، مرجئين الحديث عن أصول وجذور التفرق إلى مواضعها من البحث إن شاء الله تعالى .

١ ــ آل عمران / ١٠٥ .
٢ ــ الأنفال / ٤٦ .

هناك عاملان أساسيان أديا إلى ضعف وتفرق الإسلاميين خاصة عامل داخلي وعامل خارجي .

أما العامل الخارجي فهو ناشيء مما يكاد لهم من مكر ، وما يكال لهم من ضربات أدت إلى ضعفهم وعدم تمكنهم من إبراز دعوتهم والجهر بها وعرضها على العامة من الناس ليدخل فيها من شاء الله تعالى له الهداية ، فظلت القلة العددية النسبية لهم ـــ إذا قورنت بالقاعدة العريضة لجماهير الناس الغافلة عن الهدى المنتسبين إلى الإسلام انتساباً دون وقوف على حقيقته ومقتضاه ـــ ظلت قلتهم العددية تلك سبباً في ضعفهم ، وظلت سمتهم الرئيسية ـــ في غالب الأحوال ـــ هي الإستخفاء بأمر الدعوة حسب ما أداه إليه اجتهادهم خوف البطش والتنكيل من أعدائهم المتربصين .

وكان من لوازم ذلك ونتائجه أمور عدة نذكر منها أن الأمر قد اقتصر على التلويح بالدعوة دون التصريح بها صافية غضة متكاملة عقيدة وعملاً كما أرادها الله عز وجل ، كذلك التصريح ببعض ماتشتمل عليه الدعوة المباركة من مفاهيم وتوجيهات ، وكتمان أكثر ما ينبني على تلك المفاهيم والتوجيهات الربانية من أمور هي نتائج حتمية لها، وهذه النتائج تنتظم مناحي الحياة كلها سواء الإجتماعية أو الإقتصادية أو السياسية .

والدعوة المباركة في أول طريقها ، كالغرسة الصغيرة تحتاج إلى الرعاية والعناية وإلى الدفيء والغذاء والكمون ، وهي بعد بذرة ضعيفة قد وضعتها يد العناية تحت طبقة الأرض ، بعيدة عن الأيدي والأبصار ، لتمنع عنها غائلة القوى التي تعمل على القضاء عليها في مهدها حتى تكبر شيئاً فشيئاً ، ثم تبرز للعيان وتقوم على ساق

وتتعرض للشمس والهواء فيشتد عودها وتنمو فروعها وتطرح ثمارها بما ينفع الناس ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾ (١) .

ولابد بعد الكمون من تفتح وانطلاق .. وهو مالم تمكن منه العوامل الخارجية المحيطة بالدعوة ، مماأدى إلى ضعف الاسلاميين وانكماشهم داخل دائرة محدودة لايتجاوزونها .

وقد كان من نتائج هذا الجو المحيط بالدعوة الإسلامية أن تضاربت المفاهيم عن الإسلام وحدوده ، والإيمان ودرجاته ، وكثير من القضايا الإعتقادية التي تمس جوهر التوحيد ، كما انبنى على ذلك تضارب المفاهيم العملية التي تستمد شرعيتها من القواعد النظرية ، فظهرت البدع القولية ، والعملية وباضت وفرخت وأخرجت لنا مايراه الدارس للحركة الإسلامية المعاصرة من تفرق وتشتت واختلاف بين أبنائها منعت من اتحاد كلمتهم تحت لواء واحد وقيادة واحدة تعطى لها صفقة اليد واللسان ، ويرفع الله بها الإختلاف المذموم .

أما العامل الداخلي فهو المؤثر الرئيس ـــ كما نحسب ـــ فيما آلت إليه حالة المسلمين خلال القرون الماضية من تفرق وتأخر ، ونعني بالعامل الداخلي تلك الأمور التي تنشأ داخل المجتمع نفسه نتيجة حركته الذاتية ونتيجة ما يواجهه من أحداث ومواقف وأوضاع سياسية أواقتصادية أواجتماعية أو علمية ، فالتعصب والهوى والجهل والقول بغير علم واتباع الرؤوس الجهال والعجب بالرأي كل ذلك إنما ينشأ من داخل المجتمع نتيجة ظروفه الخاصة وأوضاعه الداخلية .

---

١ ـــ الفتح / ٢٩ .

ومجتمع الإسلاميين اليوم أشبه مايكون بالمجتمع الإسلامي الكبير في حركته خلال القرون الماضية ، وما يسوده من تفرق وتشتت إنما هو صدى لذلك التفرق القديم الحديث الذي ساد المجتمع الإسلامي في حركته عبر التاريخ .

ولانقول ذلك بمجرد الإستقراء التاريخي والواقعي للأحداث ، بل هو مما دل عليه الشرع ، وأنبأ به سيد المرسلين عليه صلوات الله وسلامه فيما رواه عنه الإمام أحمد بسنده عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ : (يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها قال : قلنا : يارسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال : أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن قال : قلنا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهية الموت) (١) .

ولا بد لنا من بعض التفصيل لتلك الجملة ليتضح المقصود ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد سنَّ سنناً كونية ــ طبيعية واجتماعية ــ تجري على كافة خلقه دون تحيز أو تميز ، هذه السنن تربط المجتمعات في حركة صعودها وهبوطها ، وتقدمها وتأخرها وتحكمها بما لايدع منها فكاك . يقول الأستاذ جودت سعيد :

(ولاشك أن تركيب المجتمع ، وغنى فئة فيه وافتقار أخرى، أمور خاضعة لقوانين وسنن اجتماعية إذا خفيت عن عيني الإنسان اشتبهت عليه الأمور وتداخلت في ذهنه المشكلات ، وظن أن القضية فوضى لاضابط لها ولا عدل فيها ولاتصدر عن حكيم عليم ..

١ ــ ج ٥ / ص ٢٧٨ .

إن الذي عرف قوانين المجتمع يمكن أن يستخدم وسائل مختلفة لقياس صلابة المجتمع ، وسلامة شبكة علاقاته ، كما يمكن أن يستعين بمختلف التحاليل التي يجريها على الأحكام التي يصورها المجتمع على تفسير الأحداث ، ليحدد نوع الخلل الذي يعانيه المجتمع . إن الخبير بسنن المجتمعات يمكن أن يدرك ، ويتخذ إجراءات في تغيير نظرات المجتمع.. .) (١) .

وقد دلنا الله سبحانه على هذه السنن فيما أنزله على رسوله ﷺ فقد قال تعالى مجملاً : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ لاتبديل لخلق الله ﴾ (٣) .

ثم فصل تعالى من تلك السنن ما يهدي الناس إلى فهم تلك الحقيقة العظمى والإعتبار بها والعمل بموجبها .

قال تعالى : ﴿ إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون ﴾ (٥) . فالسنة المذكورة في الآية الأولى جاءت بلفظ مطلق هو (قوم) أي قوم والسنة في الآية الثانية جاءت بلفظ مطلق أيضاً هو (أمة) أي أمة .

وقد ربط القرآن الكريم والأحاديث الشريفة بين السنن الطبيعية والسنن الإجتماعية في عديد من الأمثلة تقريباً للافهام ، وتقريراً لحقيقة تلك العلاقة التي منشؤها اتحاد كليهما في مصدره ، حيث

١ ــ حتى يغيروا مابأنفسهم ص ٢١ ، والحق أنه كان من الأوفق أن يضرب الكاتب المثل بالقوة والضعف إذ أن الفقر والغنى يخضعان للسنن الإلهية الكونية كما يخضعان للسنة الإجتماعية المتعلقة بالأسباب والمسببات .

٢ ــ الأحزاب / ٦٢ . ٣ ــ الروم / ٣٠ .

٤ ــ الرعد / ١١ . ٥ ــ يونس / ٤٩ .

أن كليهما من سنن الله تعالى التي لاتتبدل ، والتي تحكم في عمومها الخلق من حيث هو خلق طبيعي كالمادة أو ماديّ روحيّ كالبشر .

قال ﷺ : (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى من عضو تداعي له سائر جسده بالسهر والحمى) رواه البخاري .

وعن النعمان ابن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا : لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجو ونجوا جميعاً) رواه البخاري .

يقول الأستاذ جودت : (والرسول عليه الصلاة والسلام يضرب مثلاً آخر تمتزج فيه السنة المادية بالسنة الإجتماعية ، في مثل السفينة وركابها ، وعلاقة سنن المركب بسنن المادة تارة ، وسنن البشر تارة أخرى ، هذا المثل يذكره الرسول ﷺ ليبين أن للمجتمع قانوناً يترابط به ليحميه من الغرق .

من السهل إمكان إدراج نتائج الخرق الذي يحدث للسفينة ، ولكن ليس بمثل هذه السهولة إمكان إدراك نوع الخرق الذي يحدث للمجتمع)[1] .

ثم نضرب مثالاً يبين أن السنن الإجتماعية التي سنها الله تعالى لاتختص بأمة من الأمم ، بل هي تربط العمران البشري بقوانين واحدة لاتتخلف . يقول ابن خلدون : (والدولة في مركزها أشد مما يكون

١ ــ حتى يغيروا / ٢٥ .

في الطرف والنطاق وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت واقصرت عما وراءه ... ثم إذا أدركها الهرم والضعف فإنما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف ولايزال المركز محفوظاً إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمر جملة فحينئذ يكون انقراض المركز ، وإذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها ... وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس أجمع ولم ينتفع يزدجرد بما بقي بيده من أطراف ممالكه وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون بالشام تحيَّزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم فلم يزل ملكهم متصلاً بها إلى أن تأذن الله بانقراضه ، وانظر أيضا شأن العرب أول الإسلام لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ماجاورهم من الشام والعراق ومصر لأسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك إلى ماوراءه من السند والحبشة وافريقية والمغرب ثم إلى الأندلس فلما تفرقوا حصصاً على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونفد عددهم في تلك التوزيعات وأقصروا على الفتوحات بعد ، وانتهى أمر الإسلام ولم يتجاوز تلك الحدود ، ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدولة من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء ، سنة الله في خلقه) [1] .

وقد غابت تلك الحقيقة العظمى عن عقول الإسلاميين ، فلم ينفذوا إلى الأسباب الحقيقية وراء مشاكلهم ، وبالتالي لم يستطيعوا أن يضعوا الحلول السليمة المدروسة لها حسب سنن الله تعالى وقوانينه ، فنشأ التخبط واضطربت الخطوات ، وتفرقت الجهود .

١ ــ مقدمة ابن خلدون / ص ١٦٢ .

ومثال مما دل عليه الله سبحانه من سنن تهدي المسلمين خلال دروب الحياة الدنيا ، من خلال ماوصى به في مفردات التشريع قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ (١) .

فهذه الآية الكريمة وإن كانت أمراً مباشراً للمسلمين بإعداد العدة والقوة ـــ بكل أنواعها سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية ـــ لملاقاة الكافرين إلا أنها تدل بمفهومها على أن إعداد العدة سبب إلى النصر على أعداء الله تعالى قد أُمرنا باتخاذه ، والإخلال به مؤد بطريق اللزوم إلى الإخلال بنتائجه من عدم إمكان النصر والتفوق والعلوّ .

فإن مما قدره الله سبحانه وتعالى ربط الأسباب بنتائجها ـــ على وجه العموم فالإتيان بالسبب على الوجه الأكمل ينشأ عنه المسبب والنتيجة بإذن الله تعالى ، فإن لم تنشأ النتيجة فلابد من وجود خلل في الأخذ بالسبب وان توهمنا غير ذلك . وانظر إلى عبرة السيرة النبوية في غزوتي بدر الكبرى وأحد ترى مصداق ماقررناه واضحا، ففي غزوة بدر جاء رسول الله ﷺ بما استطاع من عدة وعدد يتكافأ مع الغرض الأصلي الذي خرج لأجله مع أصحابه ـــ وهو ملاقاة قافلة أبي سفيان لاغير وقد قدر الله سبحانه غير هذا اللقاء ، فعلم رسول الله ﷺ بذلك النقص في الأخذ بالسبب ، فشاور أصحابه من الأنصار حتى يكونوا على يقين عند اللقاء ثم أكمل ﷺ النقص في العدة المادية ـــ الذي حدث دون علم منه أو رغبة إليه ـــ بالدعاء لله تعالى حتى أنه بالغ في الدعاء مبالغة دفعت الصديق أبا بكر إلى أن يقول : (يانبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ماوعدك) (٢) .

١ ـــ آل عمران / ٢٠٠ . ٢ ـــ تهذيب السيرة لعبد السلام هارون / ص ١٦٥ .

والدعاء سبب من الأسباب التي جعلها الله سبحانه للتوصل بها إلى الأهداف بجانب سائر الأسباب المادية التي لابد منها ، فتم المقصود وحصلت النتيجة وانتصر المسلمون.

والإعتماد على الأسباب المادية كلية لايكون إلا مع انعدام الثقة بالله تعالى ، بل هو خلع مستتر لربقة الإسلام ، بينما إغفال الأسباب المادية بالكلية إعراض عن سنن الله تعالى في الكون والحياة وإغفال لأوامره إجمالاً وتفصيلاً بل الأمر كما قال ﷺ لصاحب الناقة (إعقلها وتوكل) (١) وهو جارٍ على مقتضى الجمع بين قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾ (٢) .

أما في غزوة أحد فعندما أغفل المسلمون اتباع الأمر ، وفرطوا في الحرص واختل الأخذ بالسبب ، انهزموا أمام أعدائهم ، وجعله الله تعالى درساً لاينسى لهم وللمسلمين من بعدهم أنه لادالة خاصة لأحد من البشر أو أمة من الأمم ان لم تتقيد بما سنه الله تعالى من سنن لاتتبدل .

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى :

(والأمور لاتمضي في الناس جزافاً ، والحياة لاتجري في الأرض عبثاً ، فهناك نواميس ثابتة تتحقق لاتتبدل ولاتتحول ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ، ويعلمها للناس ، ، كي لاينظروا الأحداث فرادى ، ولايعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة ، محصورين في فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان ، ويرفع تصوراتهم

١ ـــ جزء من حديث رواه الترمذي ، انظر : ابن الاثير جامع الأصول ١١ / / ٧٩٢ .
٢ ـــ غافر / ٦٠ .

لارتباطات الحياة ، وسنن الوجود فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطراد النواميس ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس) [1] .

والسنن تستلزم تدبر ماكان من أحداث ماضية ، والاعتبار بتجارب الغير سواء من المسلمين أو غيرهم من الأمم والملل وذلك ـــ كما يقول ابن خلدون ـــ (حتى تتم فائدة الأقتداء في ذلك لمن يرون في أحوال الدين والدنيا) [2] وقد قال تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ... ﴾ [3] .

فإن التدبر في عاقبة الماضين ، والنظر فيما جرى للغابرين ، لهو عبرة حية من الأولين للآخرين ، حتى نستفيد منها ونتلافى ماوقع لهم نتيجة خطأ أو زلل .

ولافرق هنا بين الاعتبار بتجارب الأمم السابقة التي ضلّت ضلالاً تاماً ، وأخذها الله بذنوبها فأنزل بها العذاب الدنيوي قبل الأخروي ، وبين الاعتبار بتجارب المعاصرين من الإسلاميين الذين خاضوا معترك العمل الإسلامي من منطلقات فيها خطأ أو انحراف ـــ فكريٌّ ـــ فأدى بهم إلى نكبات ومحن وأدت بالعمل الإسلامي ذاته إلى التقهقر والتأخر ، لأن السنن هي السنن ، والعوامل التي أدت إلى انحلال وتفرق المسلمين ، هي بذاتها ـــ أو قريباً منها ـــ التي أدت إلى انحراف الأمم السابقة وهو مدلول حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه الصحيحان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

١ ـــ في ظلال القرآن ج ٥ / ص ٢٩٥٠ .
٢ ـــ المقدمة / ص ٩ .
٣ ـــ الروم / ٤٢ .

قال رسول الله ﷺ : (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟) .

يقول الأستاذ جودت سعيد تعليقاً على الحديث :

(ومثل هذا النظرإلى الموضوع ، هو الذي نفتقده الآن وعلينا أن نكتسبه ، لأن هذه النظرة القرآنية هي التي تجعل المسلم قادراً على الإعتبار الذي يلح عليه القرآن .

فأمامنا تجارب القرون الماضية ، تجارب كثيرة تظهر فيها سنن تغيير الأقوام التي خضع لها المسلمون أيضاً ، كأي قوم من الأقوام .

وفي الواقع ان هذا النظر القرآني يجرد الإنسان من ملابساته ، ويرجعه إلى أصله المجرد الذي يخضع للسنن) [1].

ومن سنن الله تعالى التي لابد من اعتبارها للوصول إلى الأهداف حسن التدبر والتخطيط ، والبعد عن التجريدات النظرية واتباع قوانين الملاحظة والتجربة العلمية وعدم التواكل والغفلة ، والحذر الجريء، والإقدام في مواطنه ، والاحجام حيث تدعوا المصلحة الشرعية إلى غير ذلك مما لايدعوا المقام إلى الاستطراد في تفصيله إذ يهدف البحث إلى غير الهدف الذي ننشده هنا ، وإنما أردنا أن نستدل على أن إهمال تلك السنن الكونية الثابتة ، وعدم اعتبارها أدى إلى الضعف والإنحطاط والتشتت والتفرق ، ولايزال سبباً فيما يعانيه الإسلاميون حتى اليوم من بعد عن الهدف وتشتت في النظر وتأخر في الأساليب، ولاسبيل إلى الوصول إلى الهدف المرجو إلا بالنظر بذلك المنظار الذي يجعل المسلم يدرك خضوعه لقوانين الله المبثوثة في الكون

١ ـــ (حتى يغيروا مابأنفسهم) ص ٣٣ .